

العلوم الإنسانية - العدد 17/16 - 2009

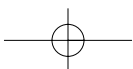
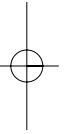
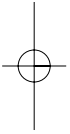
الإسكندرية في رحلات المغاربة في أثناء العهد العثماني

د. ناصر الدين سعيدوني*

تعدّ الإسكندرية باب المشرق بالنسبة للجزائريين وباقي المغاربة، كما تعرف لدى العامة بأنها محطة المغرب الأولى، لكونها الميناء الرئيس لوادي النيل الذي تبدأ منه وتنتهي إليه الطرق البرية والمسالك البحرية التي تربط مصر ببلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، وهذا ما جعلها، منذ انتشار الإسلام في شمال إفريقيا وتوطد علاقات سكانه بالأقطار الإسلامية في المشرق، مقصد المتوجهين من البلاد الجزائرية نحو مصر وما وراءها من الأقاليم لأداء فريضة الحج أو لطلب العلم والدراسة أو بغرض السفر وممارسة التجارة.

لقد كان الانتقال من الجزائر نحو الإسكندرية يتم بالسفر برا مع القوافل المتوجهة نحو مصر، عبر الجنوب التونسي وإقليمي طرابلس الغرب وبرقة. فقد كان الحجاج المغاربة يدخلون الإسكندرية من باب السدرة، وغالبا ما يحطون رحالهم بزاوية أبي محمد صالح وما جاورها، ليقضوا بالإسكندرية أسبوعا في الذهاب وآخر في الإياب⁽¹⁾، يستريحون في أثناءه من عناء السفر ويتعرفون على المدينة ويزورون مشاهدها ويترددون على حلقات الدرس في مساجدها ويحرصون على إقامة علاقات مع علماءها وشيوخها وأعيانها، قبل أن يسلكوا طريق القاهرة عبر دمنهور وفوة وأبيار والمحلة الكبرى وفارسكور وأشمون الرمان، وقد يركب بعضهم القوارب فيصل عن طريق النيل إلى أمبابة ومنها إلى القاهرة، فيلتحق بمحفل الحج المصري الذي كان يتولى أمره من قبل حاكم مصر رجل يعرف بـ «أمين الصرة» ويطلق عليه لقب ياميني المكلف بإمارة الحج والمخول بالسهر على الأعطيات العينية والنقدية الموجهة إلى علماء وأشرف الحرمين الشريفين⁽²⁾.

* أستاذ مشارك، قسم الاجتماع، جامعة الكويت.



العلوم الإنسانية - العدد 17/16 - 2009

فضل علم التاريخ والأخبار»⁽⁶⁾، ورحلة عبدالرزاق بن حمادوش الجزائري «لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال»⁽⁷⁾، ورحلة محمد بن عمار الجزائري «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب»⁽⁸⁾، وتقييد محمد بن أبي راس الناصري العسكري «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار»⁽⁹⁾ و«فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته»⁽¹⁰⁾، والأمير عبدالقادر الجزائري في سيرته الذاتية وغيرها⁽¹¹⁾.

ولم يقتصر الأمر على الجزائريين، فقد كان لرحلات وتقايد المغاربة الآخرين أهمية خاصة لما تضمنته من معلومات مهمة عن مدينة الإسكندرية بوصفها المحطة الرئيسية في طريق الحج، نذكر منها، على سبيل المثال، ما كتبه سفير ملك غرناطة للسلطان المملوكي جقمق⁽¹²⁾، وما سجله الحسن بن محمد الوزان المعروف بالأسد الإفريقي⁽¹³⁾، وما ورد في رحلات أبي سالم عبدالله العياشي (1090هـ/1697م)، واليوسي (ت. 1102هـ/1691م)، وأحمد الجزولي الهشكولي (ت. 1127هـ/1715م)، وأبي العباس أحمد بن ناصر الدرعي (ت. 1129هـ/1717م)، وأحمد بن عبدالقادر الفاسي القادري (ت. 1133هـ/1721م)، ومحمد بن عبدالسلام البناني (ت. 1163هـ/1750م)، وعبدالمجيد بن محمد المنالي الزبادي (ت. 1163هـ/1750م)، وأبي عبدالله محمد بن الطيب الفاسي (ت. 1170هـ/1757م)، ومحمد بن أحمد الحضيكي (ت. 1189هـ/1775م)، وأبي العباس أحمد بن محمد الفاسي (ت. 1214هـ/1799م)، ومحمد مقديش الصفاقسي (ت. 1217هـ/1813م)، ومحمد بن عبدالسلام الناصري (ت. 1239هـ/1823م)، وأبي القاسم بن أحمد الزياني (ت. 1249هـ/1833م) وغيرهم.

إن هذه الرحلات بما اشتملت عليه من أوصاف وسجلته من أحداث، توفر للباحث مصدراً رئيساً للتعرف إلى عمران مدينة الإسكندرية ورصد واقع الحياة فيها، على أنه نظراً لتشابه مضمون الكثير من هذه الرحلات ورجوعها في الغالب إلى مصادر

الإسكندرية في رحلات المغاربة في أثناء العهد العثماني د. ناصر الدين سعيدوني

وتقدم كتب الرحلات وتقييد المسافرين وصفا دقيقا لرحلة الحج هذه، فهي تصف محطات الطريق ومراحلها من بلاد المغرب إلى أقطار المشرق، وقد حظيت مدينة الإسكندرية، بوصفها «مقصد المغاربة والمشاركة» حسب وصف الأمير عبدالقادر لها في سيرته⁽³⁾، والمحطة الرئيسة للحجاج والمسافرين، بأوصاف دقيقة وتعالق مهمة تتصل بالمعالم العمرانية وبالحياة الاجتماعية والاقتصادية وتمس الواقع الثقافي والميول الروحية.

ففي الفترة الإسلامية نجد صورة الإسكندرية ماثلة بملامحها وتفاصيلها في العديد من نصوص الجغرافيين والرحالة المغاربة مثل أبي عبيد الله البكري (ت. بعد 487هـ/1094م) في «المسالك والممالك»، ومحمد بن عبدالله الشريف الإدريسي (ت. حوالي 558هـ/1163م) في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، مروراً بصاحب «الاستبصار في عجائب الأمصار» الذي يعود إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وأبي الحسن محمد بن جبير (ت. بعد 614هـ/1217م) في «تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار»، وأبي البقاء خالد البلوي (ت. قبل 680هـ/1281م) في «تاج المشرق في تحلية علماء المشرق»، وأبي الحسن علي بن سعيد الغرناطي (ت. حوالي 685هـ/1286م) في «بسط الأرض»، وأبي عبدالله محمد الحاحي العبدري البلبني (ت. بعد 688هـ/1289م) في «ما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق»، وأبي عبدالله محمد بن رشيد السبتي (ت. 721هـ/1321م) في «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة»، وأبي عبدالله محمد الطنجي المعروف بابن بطوطة (ت. 779هـ/1377م) في «تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»⁽⁴⁾.

وإذا تجاوزنا الفترة الإسلامية إلى العهد العثماني، نجد العديد من رحلات وتقايد الجزائريين تصف مدينة الإسكندرية، فمن هذه الرحلات والتقايد التي وضعها الجزائريون، نذكر رحلة الشيخ عبدالله القادر المجاجي (ت. حوالي 1063هـ/1652م) التي ضمنها قصيدة طويلة استعرض فيها رحلته من الجزائر إلى مكة المكرمة⁽⁵⁾، ورحلة الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتلاني «نزهة الأنظار في

العلوم الإنسانية - العدد 17/16 - 2009

1 - معالم الإسكندرية العمرانية

تحرص نصوص الرحلات والتقارير التي وقع اختيارنا عليها في عرضنا هذا، على تبين ما اشتهرت به الإسكندرية قديماً من معالم عمرانية، وما عرفت به على عهدهم من نشاط مميز ومكانة خاصة، فهي حسب أبي سالم العياشي: «عقيلة البلاد الحائزة للطريف من المحاسن والتلاد - عقيلة أبلَى الدهر أسبابها ومزق جلبابها.. فهي من أمهات المدن المذكورة.. وناهيك بفخامة بانيتها الإسكندر وشهرته واستيلائه على الممالك»⁽¹⁹⁾. وهي عند الورتلاني: «من أمهات المدائن الكبرى في الدنيا، فهي دار مملكة الديار المصرية قبل الإسلام وبها كان المقوقس..»⁽²⁰⁾، وقد رأى أبو القاسم الزياني، اعتماداً على من وصفها في القديم، أنه: «لا توجد مدينة أحسن منها، ولا أبدع منها صنعا، وأجمل رونقا، ولا أوسع مسالك، وأعلى مباني، ولا أجمل مراسم، ولا أوضح معالم، ولا أملح أزقة، ولا أعجب رونقا ورقة، ولا أحسن تفصيلا وجملة.. فكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة، وصور الجنة فيها منقوشة»⁽²¹⁾. على أن صورة الإسكندرية القديمة هذه التي ضخها الخيال وأبعدتها المبالغة عن الواقع لا تلبث أن تختفي في نصوص الرحلات وتحل مكانها صورة لواقع الإسكندرية في العهد العثماني، وقد تقلص عمرانها وتهدمت معالمها ودرست أطلالها، ولم يبق من تلك المساحة الشاسعة التي كانت الإسكندرية القديمة تحتلها «سوى عمارة قليلة داخل سور المدينة» حسب العياشي⁽²²⁾، فاكتمل بذلك خرابها منذ حكم العبيديين (الفاطميين)، ولم يبق ماثلا من معالمها سوى مسجدتها الأعظم وبعض حماماتها حسبما أورد الزياني في الترجمانة الكبرى⁽²³⁾.

ومع أن رواية أبي القاسم الزياني هذه تتطلب نقداً ودراسة للتعرف على الوضعية التي آلت إليها الإسكندرية على عهد الفاطميين، إلا أن وضع الإسكندرية عند استيلاء السلطان سليم الأول العثماني عليها (922هـ/1517م) يؤكد لنا حالة التراجع والانكماش التي آلت إليها الإسكندرية، فقد أورد أبو سالم العياشي نقلا عن

الإسكندرية في رحلات المغاربة في أثناء العهد العثماني د. ناصر الدين سعيدوني

معروفة⁽¹⁴⁾ وتكرر اقتباس بعضها من بعض، ارتأينا الاقتصار على نصوص بعض الرحلات التي تعود إلى العهد العثماني، لتحليل مضمونها وتكوين صورة متكاملة عن معالم مدينة الإسكندرية وواقع الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فيها.

وقد وقع اختيارنا في ذلك على النصوص الآتية:

- مشاهدات سفير ملك غرناطة للسلطان المملوكي عند نزوله الإسكندرية سنة 844هـ.
- تعريف الحسن بن محمد الوزان المعروف بالأسد الإفريقي بتاريخ الإسكندرية. ومعالمها وعمرانها.
- رواية أبي سالم عبدالله العياشي عن توقفه بالإسكندرية وزيارته مشاهدها.
- انطباعات الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتلاني عن الإسكندرية.
- تقايد عبدالرزاق بن حمادوش الجزائري عن إقامته بالإسكندرية، ودراسته فيها.
- عرض أبي القاسم بن أحمد الزياني لمعالم الإسكندرية ومشاهدها.
- تعليق الأمير عبدالقادر على توقفه بالإسكندرية مع أبيه في طريقه إلى الحج.

هذا دون أن نهمل العديد من التقارير الخاصة والتقايد المتعلقة برحلة الحج من قبيل ما أثبتته المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي في مدونته «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»⁽¹⁵⁾، أو ما أشار إليه الحاج أحمد الشريف الزهار في مذكراته⁽¹⁶⁾، أو ما سجله العالم الفرنسي جيرار (Girard) في مدونة «وصف مصر» (Description de l'Egypte)⁽¹⁷⁾، أو ما تضمنته المراسلات القنصلية الفرنسية (Correspondances consulaires)⁽¹⁸⁾. وذلك حتى نتمكن من استكمال الصورة التي ترسمها نصوص الرحلات الحجية للإسكندرية ومجتمعها، هذه الصورة التي سنعرض خطوطها الرئيسية في النقاط الآتية:

العلوم الإنسانية - العدد 17/16 - 2009

منه حركة السفن القادمة إلى الإسكندرية حتى يمكن استخلاص الرسوم منها وفرض الغرامات على من لا يتمثل لموظفي الجمارك، وغير بعيد من هذا الحصن تنتشر منازل المدينة وهي في أغلبها مزودة بأحواض ماء ذات قباب محمولة على أعمدة وأقواس، يصلها ماء النيل عند فيضانه عن طريق قناة حفرت في السهل الممتد بين مجرى نهر النيل وأسوار الإسكندرية⁽²⁸⁾.

أما أهم معالم الإسكندرية القديمة التي حرصت كتب الرحالة على ذكرها والإشادة بها، فهي:

1 - منارة الإسكندرية: عدتها كتب الرحالة إحدى عجائب الدنيا السبع وحرصت على ذكرها رغم زوال أثرها، فنتعتها أبو القاسم الزياني بالمتذنة الكبرى وأورد وصفها اعتماداً على ما نقله كل المسعودي وابن فضل الله العمري، فذكر أن ارتفاعها يصل إلى 230 ذراعاً وقد يصل إلى 400 ذراعاً، وأن في أعلاها مرآة مطلّسة تستعمل لحرق السفن المعادية، وقد تعرضت المنارة للتخريب في العهد البيزنطي وزال أثرها نهائياً في أيام الفاطميين، وأرجع ذلك إلى سعاية رجل رومي أوهم حاكمها الفاطمي بأن تحتها كنزاً، فانطلقت المكيدة عليه وتسبب البحث عن الكنز المزعوم في خراب المنارة⁽²⁹⁾.

2 - عمود الصوراي أو عمود الأعيان: وهو العمود المعروف في المصادر الغربية بعمود بومبي، يقع خارج المدينة العثمانية ناحية الغرب على بعد ستة أميال، ويعود بناؤه، حسب الحسن الوزان: «إلى بطوليمي الذي جعل منه نقطة مراقبة ووسيلة لحماية السفن وجهازه لهذا الغرض بمرآة عاكسة من الحديد الصلب تسلط أشعتها المحرقة على السفن المعادية»⁽³⁰⁾، ووصفة العياشي بأنه: «عمود واحد من حجر مائل في الهواء من فوقه حجر مربع مثل الكرسي دوره نحو الثلاثين ذراعاً⁽³¹⁾، وعلق عليه الورتلاني نقلاً عن بعض الروايات التي استقاها من سكان الإسكندرية بأنه (أي

الإسكندرية في رحلات المغاربة في أثناء العهد العثماني د. ناصر الدين سعيدوني

ما رواه له الشيخ باكر بأن السلطان سليم العثماني عندما فتح الإسكندرية لم يستجب لطلب سكانها لإعادة تعمير المدينة القديمة المهدامة، فكان ذلك عين الصواب، حسب رأيه، لأن ما خربه الله - حسب قوله - لا يصلحه الإنسان⁽²⁴⁾. وبذلك ظلت الإسكندرية في العهد العثماني تحتل مكاناً محصوراً بالبحر من جهتين ومحمياً بالسور من جانب المدينة القديمة ومنفتحاً على الفضاء من الجهة الأخرى⁽²⁵⁾، وهو الجزء الشمالي الغربي من مدينة الإسكندرية القديمة الذي قام بإعمارها في العهد الأيوبي الملك الناصر بن أيوب، في حين ظلَّ الجزءان الآخران مهجورين، أما أولهما فتنتشر فيه به بقايا أطلال الإسكندرية القديمة حيث توجد المنارة، وأما الموضع الآخر ففضاء فسيح يعرف بالهبط أو القبطة حسبما أورده الورتلاني⁽²⁶⁾.

وقد وصف الحسن الوزان الإسكندرية في مطلع العهد العثماني، فذكر أنها تحتل مساحة مربعة تفتح على أربعة أبواب: أحدها في الشرق ناحية النيل، والآخر في الجنوب في اتجاه البحيرة، والثالث في الغرب يؤدي إلى صحراء برقة، والرابع متجه نحو البحر حيث مرسى السفن ومقر الحرس ورجال الجمارك القائمين على تفتيش القادمين إلى الإسكندرية عن طريق البحر. وداخل السور يوجد بابان متصلان بشارع، ومحميان بقلعة الإسكندرية الحصينة الواقعة عند مدخل الميناء القريبة من برج الإسكندرية والمشرفة على المكان المخصص لرسو السفن القادمة من الموانئ الأوربية⁽²⁷⁾.

أما داخل المدينة - حسب وصف الحسن الوزان - فتتوسطه هضبة تشكلت من أكوام التراب التي تعود إلى عهد إنشاء الإسكندرية، وقد تناثرت فيها بقايا بنايات مهدامة، منها بيت صغير على شكل كنيسة صغيرة وفيه قبر يعظمه المسلمون؛ لاعتقادهم بأنه قبر الإسكندر ذي القرنين الذي ورد ذكره في القرآن، إذ يقومون بزيارته وإشعال الشموع فيه ويتركون الصدقات فيه، كما يوجد إلى أحد التلال حصن صغير تراقب

العلوم الإنسانية - العدد 17/16 - 2009

2 - مشاهد الإسكندرية ومزاراتها

اهتمت كتب رحلات المغاربة وتقاييد الحجاج الجزائريين التي تعرضت لوصف الإسكندرية، بذكر مشاهد الأولياء ومقامات الصالحين وقبور العلماء، إذ كانت مقاصد زيارة الحجاج الذين كانوا يحرصون على الوقوف عليها تبركا بها وإجلالاً لمكانتها وتعظيماً لمنزلة أصحابها، حتى غدت من دوافع زيارة مدينة الإسكندرية ومن أهم مآثرها ومعالمها التاريخية. وهي في مجملها تصنف، حسب وصف الرحلات، إلى مشاهد الأولياء ومقامات العلماء. فمن مشاهد الأولياء الصالحين التي ورد ذكرها في كتب الرحلات:

- مشهد الولي القطب سيدي أبي العباس أحمد المرسي الأندلسي (ت. 686هـ/1287م) الذي تولى مشيخة الشاذلية وعرف بصلاحه وزهده واشتهر لدى العامة بكراماته.

- قبر سيدي عبدالرزاق أحد تلامذة الغوث أبي مدين شعيب (دفن العباد بتلمسان، ت. 594هـ/1198م)، ويعدّ من «أجلّ من نشر طريقة أبي مدين بعده وأخذها الناس عنه»، حسب رواية العياشي⁽³⁸⁾.

- قبر سيدي علي البدوي.

- قبر سيدي ياقوت العرشي الملقب بالحبشي، تلميذ أبي العباس أحمد المرسي.
- قبر سيدي أحمد الذي لقب بالمناري لما شاع عنه أنه صعد منارة الإسكندرية بحماره، فاعتبره العياشي «صاحب بركة»⁽³⁹⁾، وحرص الورتلاني على الوقوف على قبره الموجود في أحد بيوت زاوية أبي الحسن الشاذلي⁽⁴⁰⁾، هذه الزاوية التي تعد أحد مشاهد الإسكندرية، فكانت بدورها مقصد الحجاج، وهي حسب وصف العياشي «قلعة كبيرة في سور البلد التركي، بها بيوت متعددة، يأتيها الشاذلية في ليلة معلومة من السنة يجتمعون على الطعام بها، ويقضون الليل بها في العبادة وقراءة الأذكار»⁽⁴¹⁾.
ومن مشاهد الإسكندرية التي ذكرتها الرحلات، مقام النبي دانيال الذي كان، حسب

الإسكندرية في رحلات المغاربة في أثناء العهد العثماني د. ناصر الدين سعيدوني

العمود): «في الأصل أربعة أعمدة.. في أعلاها قبة كان يجلس عليها أرسطو صاحب الرحلة»⁽³²⁾، ويبدو أن الأمر قد التبس على الورتلاني، فخلط بين منارة الإسكندرية والعمود الذي ظل قائماً بين أنقاضها حتى عد الأثر الوحيد الباقي من الإسكندرية البطلمية - الرومانية.

3 - بركة الماء: وهي حفير كبير يعود إنشاؤه إلى عهد الإسكندر المقدوني مؤسس المدينة، على شكل بركة تتميز بسعتها وجودة بنائها المدعم بألواح الرخام وبالبحر الصلد، حتى يحول دون تسرب الماء الذي يصل إليها من إحدى قنوات النيل، ليوزع منها على حمامات المدينة وخاناتها وكنائسها ومنازلها المزودة بأحواض خاصة تعرف بـ «السفيطة» سعة كل واحد منها على قدر ساكنها⁽³³⁾. وقد اكتسبت بركة الماء هذه أهمية خاصة لارتباطها بحياة السكان ولكونها ظلت مستعملة طيلة العهد العثماني إذ وقف عليها الزباني عند زيارته للإسكندرية في مستهل القرن التاسع عشر⁽³⁴⁾.

4 - الملعب والمستنن والحمام الكبير والمدافن: وهي معالم عمرانية مهمة في الإسكندرية القديمة، وقد زالت آثارها وإن حرصت كتب الرحلات على ذكرها اعتماداً على الروايات المتواترة والأوصاف المنقولة من كتب التاريخ والجغرافية. فالملعب، حسب أوصاف هذه الروايات، كان بناء فخماً يحتل فضاء مخصصاً لاجتماع السكان في الأعياد السنوية. والمستنن أو الساريتان اللتان تزينان المدينة كانتا عبارة عن نصبين ضخمين من الحجارة المنحوتة المنقوشة، فهما حسب وصف الورتلاني: «جبلان قائمان على سرطانات من نحاس»⁽³⁵⁾. أما الكبير الذي لم تبق منه سوى أساساته فقد ذكر العياشي بأنه «أحسن حمامات الدنيا، إذ أثنى عليه الأطباء، وتفرّد في سعته وحسن شكله وفخامة بناؤه»⁽³⁶⁾. في حين تشكّل مدافن الإسكندرية المحفورة تحت الأرض - حسبما أورده العياشي والورتلاني - من حيث كثرتها وسعة المساحة التي تحتلها، مدينة سفلى تضاهاى المدينة التي فوق الأرض⁽³⁷⁾.

العلوم الإنسانية - العدد 17/16 - 2009

3 - الحياة الثقافية والاجتماعية بالإسكندرية

حرصت كتب الرحلات في تعرضها للإسكندرية على ذكر ما كان يقوم به أهلها من نشاط ثقافي، وبخاصة ما يتصل بحضور حلقات الدرس والاتصال بالعلماء وربط صداقات معهم، وهذا ما يجعل الإسكندرية بحق بيئة ثقافية وموطن علم للحجاج المغاربة، لا تتفوق عليها إلا مدينة القاهرة التي تحتضن أهم المؤسسات العلمية والدينية وفي مقدمتها الأزهر الشريف، وتستقبل كل من اشتهر من علماء مصر وبلاد المشرق حتى غدت، حسب وصف أبي راس الناصري لها: «البلد الذي ليس لعمر ولا زيد، والفرا الذي في جوفه كل الصيد»⁽⁴⁶⁾.

على أن ميزة الإسكندرية بالنسبة للحجاج الجزائريين وغيرهم من المغاربة، أنها أول بيئة ثقافية يتأثرون بها وأول مركز علمي يرتبطون به ويحتكون بوسطه، ولعل هذا ما جعل بعضهم يفضلها على غيرها من حواضر العلم ومراكزه. فقد اشتهر من العلماء الجزائريين الذين استقروا بالإسكندرية لتلقي العلم على شيوخها أو التدريس في حلقات مساجدها في الفترة الإسلامية: أبو عبدالله محمد بن قاسم البجائي الإسكندري (القرن 7هـ/13م) الذي روى بالإجازة عن عالم الإسكندرية الحافظ السلفي (ت. 643هـ/1245م)، والشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن معطى الجزائري (القرن 7هـ/13م) الذي ارتبط بعلماء الإسكندرية وأخذ عنهم، والشيخ سالم بن عبدالله بن طاجين القسنطيني الذي لزم بالإسكندرية القاضي برهان الدين بن جماعة حتى توفى بها (820هـ/1417م)، والشيخ بديع الدين أبو محمد عبدالله بن محمد القسنطيني (دفن غزة 760هـ/1358م) الذي استوطن الإسكندرية والإمام ابن الشمطي القسنطيني الإسكندري وابنه كمال الدين (ت. 878هـ/1473م)⁽⁴⁷⁾.

هذا وتقدم لنا الرحلات عرضا حيا عن واقع الحياة الاجتماعية في الإسكندرية، كما توفر لنا تقايد الحجاج والقنصليات ووثائق المحاكم معلومات في غاية الأهمية

الإسكندرية في رحلات المغاربة في أثناء العهد العثماني د. ناصر الدين سعيدوني

تلك الرحلات، مكان زيارة وموقع تكريم⁽⁴²⁾.

أما مقامات العلماء التي ورد ذكرها في الرحلات فهي:

- قبر أبي الحسن البوصيري (ت. 695هـ/1295م) صاحب الأمداح النبوية ومنها منظومته المشهورة بـ «البردة» التي كانت تنشء عادة في المولد النبوي الشريف في أغلب بلاد المغرب.

- قبر أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت. حوالي 520هـ/1126م) صاحب «سراج الملوك»، الذي نزع عن بلده طرطوشة بالأندلس ليستوطن الإسكندرية وليصبح له مكان بين أهلها بعلمه وورعه وصلاحه، فعده العياشي في رحلته «الإمام الجامع بين العلمين»⁽⁴³⁾.

- مقامات الأئمة الفقهاء: الفاكهاني والخزرجي وتاج الدين بن عطا.

لقد حرصت هذه الرحلات في ذكرها مشاهد ومزارات الإسكندرية على الإشادة بمناقب الصلحاء والعلماء وكرامات الأولياء، والتأكيد على التبرك بها، فهي بذلك تعبر عن الميول الروحية السائدة في مجتمع الإسكندرية العثماني من خلال سلوك الحجاج الذي يعدّ مظهراً معبراً عن روح التقوى والاعتقاد في أبسط مظاهره. وهذا ما لم يغفل عنه العياشي في ملاحظاته عندما ذكر أن الحجاج الوافدين معه إلى الإسكندرية «قد استفاضت ألسنتهم كثيراً من المكاشفات من (الست نعيمة) من أهل الصلاح والزهد، وإن لم ير شيئاً من ذلك عندما زارها مرتين، وإن اعتبرها من أهل الأحوال»⁽⁴⁴⁾، ولم يؤاخذ العياشي الحجاج على ما كانوا يتبركون به، وإن لم يجارهم فيه، مثل تبركهم بالسلاح المعلق في زاوية أبي محمد صالح التي ينزل بها المغاربة، باعتباره سلاح الصحابة الذين فتحوا المدينة، وكذلك المصحف الكبير الموجود بالجامع الأعظم بالإسكندرية باعتباره أحد المصاحف التي بعثها الخليفة عثمان (ض) إلى الآفاق⁽⁴⁵⁾.

العلوم الإنسانية - العدد 17/16 - 2009

والتسامح والمساواة، فأصبح المغاربة أحد المكونات الأساسية في مجتمع الإسكندرية المتعدّد الطوائف والجنسيات.

أما من حيث مظاهر الحياة الاجتماعية في الإسكندرية سواء كانت معاملة أم عادات أم مأكّل ومشرب ومسكن وحالة صحية، فإن الرحلات وتقايد المسافرين وتقارير القناصل تتوافر على معلومات قيمة. فقد ذكر العياشي ما يؤكّد روابط الصداقة بين الحجاج المغاربة وسكان الإسكندرية، عندما أشار إلى توطد علاقته بوكيل أبي العباس المرسي رغم غيابه عن الإسكندرية عشرين سنة⁽⁵²⁾. كما ورد في وصف سفير ملك غرناطة لنزوله الإسكندرية واستقباله من طرف حاكمها صنغا الطيار التركي الملقب بملك الأمراء ما يعرفنا على مراسم الاستقبال، فقد جاء وصف ذلك بهذه الفقرات المعبرة: «فوجه إلينا (أي حاكم الإسكندرية) عند نزولنا البحر للركوب جملة من عتاق الخيل التي لم يعهد مثلها قدودا وحسن هيئة وكمال زي. وذلك لأنهم يصنعون بتلك البلاد قرابيس سروجهم من خالص الفضة ويموهونها بالذهب على إحكام صنعه وحسن وشي، ويضعون مواضع الركوب بها مجالس من الديداج الملون، ويجللون أكفال الخيل بستائر من الحرير المذهب مما يروق الطرف»⁽⁵³⁾. هذا ولم يفتر سفير غرناطة الإشارة كذلك إلى نوعية الشراب والأكواب التي قدم فيها، فقد جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله: «فجاء بأواني زجاج رائق، فيها من مذايب السكر المزوج بماء الورد مما يحيي النفوس وينعش القلوب»⁽⁵⁴⁾.

وتندرج ضمن الحياة الاجتماعية الحالة الصحية التي كانت موضع اهتمام الرحلات وتقايد المسافرين وتقارير القناصل، لما كانت تمثله من تهديد للحجاج في أثناء سفرهم أو عند بلوغهم الإسكندرية أو عودتهم إلى الجزائر، فظهور الوباء (الطاعون) وانتشاره كان سببا في قطع المواصلات وتوقف السفر، فينقطع الحج وتضطرب أمور الحجاج، فقد ذكر أبو القاسم الزياني في رحلته أنه لما نزل الإسكندرية، اضطر أن يقيم بها شهرين لقلّة المراكب المتوجهة نحو المغرب بسبب

الإسكندرية في رحلات المغاربة في أثناء العهد العثماني د. ناصر الدين سعيدوني

عن نوعية العلاقات الاجتماعية ومكانة الجالية المغاربية ومنها جماعة الجزائريين في مدينة الإسكندرية في العهد العثماني، فمن خلال الدلالات الاجتماعية المستخلصة من هذه الرحلات أو التي تتضمنها تلك الوثائق ترسم صورة مجتمع الإسكندرية، الذي يتعايش فيه المسلمون والنصارى ويختلط فيه المصريون بغيرهم من القادمين من مدن البحر المتوسط.

فمجتمع الإسكندرية المنفتح على عالم البحر المتوسط والمتصل مباشرة ببلاد المغرب كان يتميز بطوائفه الدينية وبخاصة المسيحيون (اليعاقة) الذين كانوا يشتغلون بالتجارة على وجه الخصوص حسبما أورده الحسن الوزان⁽⁴⁸⁾، كما يعرف مجتمع الإسكندرية بجالياته الأوربية والشامية و المغاربية وغيرها. وقد اكتسبت الجالية المغاربية من خلال رحلة الحج أهمية كبيرة وأصبحت لها مكانة مميزة في المجتمع الإسكندري أواخر العهد العثماني بفعل تماسك أفرادها وترابط أسرها وتضامن تجارها، فرغم تعدد مواطن هذه الجالية ببلاد المغرب، إلا أنها فضلت التجمع في حي خاص بها عرف بحارة المغاربة، واستأثرت تجارتها بسوق جعلوه مركزا لنشاطهم التجاري أشارت إليه الوثائق بعطفية المغاربة أو شارع المغاربة أو سوق المغاربة⁽⁴⁹⁾.

أصبحت الجالية المغاربية بالإسكندرية تشكل طائفة اجتماعية لها مكانتها بفعل تضامنها ووضعها المميز، الأمر الذي ساعد أفرادها على الحصول على حقوقهم ومكنهم من رد المظالم عن أنفسهم، وهذا ما تؤكد المعلومات المتعلقة بالمغاربة التي تضمنها كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» لعبد الرحمن الجبرتي⁽⁵⁰⁾، وأثبتته العديد من وثائق محكمة الإسكندرية⁽⁵¹⁾.

هذا ولم يحل الوضع الخاص والمميز للجالية المغاربية دون اندماجها في الوسط الإسكندري، وقد ساعدها على هذا الاندماج الوضع الاجتماعي والنشاط الاقتصادي في الإسكندرية، المتميز بالانفتاح وتقبل الغرباء والمتصف بالحيوية

العلوم الإنسانية - العدد 17/16 - 2009

الهوامش:

- 1 - أبو سالم عبدالله العياشي (ت. 1090هـ/1681م)، ماء الموائد أو الرحلة العياشية، نشر محمد حجي، الرباط، 1977.
- 2 - يتولى شئون الحجاج الجزائريين مبعوث حاكم الجزائر (الداي) المعروف بأمين بيت المال (بيت المالجي) المكلف بحمل الصرة وهدايا الحرمين، انظر: الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر (ت. 1289هـ/1872م)، مذكرات: 1754-1830، نشر وتحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص. 144.
- N. Saidouni, -
- G. Busson de Jansens, Contribution a l' Etude des Habous Publics Algeriens, Alger, 1950, dactylo., p.29.
- 3 - الأمير عبدالقادر الجزائري (ت. 1300هـ/1883)، السيرة الذاتية، تحقيق ونشر يحيى بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995، ص. 50-51. كما يوجد تحقيق آخر للسيرة نشره كل من محمد الصغير بناني ومحفوظ السماتي ومحمد الصالح الجون، الجزائر، دار الأمة، 1998، ص. 98. من الراجح أن الأمير أملى سيرته وهو في الأسر بفرنسا على صهره ومرافقه الحاج مصطفى بن التهامي.
- 4 - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999 (راجع تراجم الرحالة الواردة أسماؤهم في الكتاب).
- 5 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ج. 2، ص. 382.
- 6 - الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتلاني (ت. 1193هـ/1779م)، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، نشر محمد بن أبي شنب، ط. 2، بيروت، دار الكتاب العربي، 1974 (ط. 1، الجزائر، 1908).
- 7 - عبدالرزاق بن حمادوش الجزائري (ت. حوالي 1200هـ/1783م)، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق أبي القاسم سعد الله، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.
- 8 - أحمد بن عمار الجزائري (ت. بعد 1205هـ/1789م)، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب (الرحلة الحجازية)، الجزائر، 1902.
- 9 - محمد بن أحمد بن أبي راس الناصري العسكري (ت. 1238هـ/1823م)، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بتاريخ 1262هـ تحت رقم 1633، المكتبة الوطنية الجزائرية.
- 10 - محمد بن أحمد بن أبي راس الناصري العسكري، فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق محمد بن عبدالكريم، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990.
- 11 - الأمير عبدالقادر الجزائري، المصدر نفسه، ص. 50-51.
- 12 - السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، 1982، نص رحلة سفير ملك غرناطة إلى السلطان الظاهر جقمق سنة 844هـ/1440م، ص. 493-595.
- 13 - الحسن بن محمد الوزان (ت. 944هـ/1537م)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد

الإسكندرية في رحلات المغاربة في أثناء العهد العثماني د. ناصر الدين سعيدوني

الوباء الذي انتشر في إفريقيا⁽⁶⁵⁾، نظرا لفرض نظام الحجز الصحي (الكرانتينا) (Quarantaine) عند أبواب مدينة الإسكندرية وحول مينائها.

من خلال ما سبق يتضح لنا أن الرحلات وتقاييد العلماء وتقارير القناصل، تعتبر بحق مصدرا مهما ومرجعاً أساسياً للباحث في قضايا التاريخ ومسائل التراث، يتجاوز ما تقدمه كتب التاريخ العامة من معلومات، ويعدل ما يصدر عن الدراسات الغربية من أحكام، غالبا ما تعكس نظرة خارجية متأثرة بالظروف الأوروبية، وهذا ما يسمح لنا بالقول بأنه لا يمكن تكوين صورة متكاملة وواضحة المعالم لمختلف أوجه الحياة في مدينة الإسكندرية دون الرجوع إلى الرحلات والاطلاع على تقاييد العلماء وتقارير القناصل.

فالرحلات والتقارير ليست عرضا تاريخيا أو وصفا للأشياء حسب، وإنما هي حاصل تجربة شخصية وخلاصة لحياة يومية في تعاملها ومعاناتها ونظرتها إلى المجتمع وقضايا الثقافة والاقتصاد وأمر العبادة، ولا تستكمل الوثائق الأرشيفية ونتائج الحفريات الأثرية من دون الرجوع إليها والاستفادة منها.

وفي ختام هذا العرض، يجدر بنا أن نلاحظ أن الدافع لنا في محاولتنا رسم صورة للإسكندرية في العهد العثماني من خلال بعض الرحلات والتقارير، هو استكمال الجانب الآخر الذي تعكسه الرحلات والتقارير، والذي يبين الاحتكاك الثقافي والتعامل الاقتصادي والتواصل الاجتماعي. وقد أخذنا في الحسبان خصوصية الرحلات ومواصفات التقارير من تشابه وتمائل في بعض ما تنقله من مصادر سابقة، وميل واضح للمبالغة في وصف بعض معالم الإسكندرية، وإن كنا في بعض الأحيان نبقي على نصوص الرحلات كما هي، لأنها تعبر عن روح العصر وتظهر اعتقاد العامة في كرامات الأولياء والصالحين، وحتى نستكمل صورة للإسكندرية كما عرفها وتأثر بها الحجاج، وبذلك نتأكد لنا مكانتها بصفتها محطة رئيسة للحجاج المغاربة، ويتضح لنا دورها بوصفها وصل بين موانئ البحر المتوسط، وبيئة تواصل بشري وتفاعل حضاري بين أقطار المغرب العربي والديار المصرية.

العلوم الإنسانية - العدد 17/16 - 2009

- ذكر أنه لم يشيد ذكرى لقيصر وإنما تمجيدا للإمبراطور الروماني سيفر، وأقامه سكان الإسكندرية: إلهام محمد علي ذهني، المصدر نفسه، ص. 222.
- 33 - الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص. 596. وكذلك: أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 199.
- 34 - أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 198.
- 35 - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 198.
- 36 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 67.
- 37 - المصدر السابق، ص. 362.
- الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 569.
- 38 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 363.
- 39 - المصدر السابق، ص. 364.
- 40 - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 570.
- 41 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 364.
- 42 - الأمير عبد القادر الجزائري، المصدر نفسه، ص. 98.
- 43 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 363.
- 44 - المصدر السابق، ص. 361.
- 45 - المصدر السابق، ص. 67.
- 46 - محمد بن أحمد بن أبي راس الناصري، فتح الإله...، المصدر نفسه.
- 47 - محمد زيتون، أعلام قسنطينة وعلاقتهم الثقافية بالقاهرة والإسكندرية، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 18/1973، ص ص. 55-62.
- 48 - الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص. 497.
- 49 - عبد الرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، المغاربة في مصر في العهد العثماني (1517-1798)، دراسة في تأثير الجالية من خلال وثائق المحاكمة الشرعية، تونس 1982، ص ص. 57-58.
- 50 - عبدالرحمن الجبرتي، المصدر نفسه، ج. 1: ص ص. 42، 208، ج. 2: ص ص. 132، 251، 378، ج. 3: ص ص. 43، 131، 187، 369، 370، ج. 4: ص ص. 84، 103، 141، 220، 229، 446، 464، 486.
- 51 - عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية إبان العهد العثماني (1517-1798)، من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، المجلة التاريخية المغربية، العدد 29-30/1983، ص ص. 395-417.
- 52 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 361.
- Mohamed Lakhdar, Etapes du pelerin de Sijilmassa a la Mecque, d'après El-Ayachi, in Actes du -
Congres de la Federation des Societes Savantes Nord-Africaines, Alger, T. II, 1939, p. 689.
- 53 - السيد عبدالعزيز سالم، المصدر نفسه، نص رحلة سفير غرناطة...، ص. 594.
- 54 - المصدر السابق، ص. 594.
- 55 - أبو القاسم الزياني، المصدر نفسه، ص. 195.

الإسكندرية في رحلات المغاربة في أثناء العهد العثماني د. ناصر الدين سعيدوني

- الأخضر، ط.2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983. اعتمادا على النسخة الفرنسية لإبولار، أرجع:
J. Leon l'Africain, Description de l'Afrique, Nouvelle edition, Trad. De l'italien par E. Epaulard, 2 Vols., Paris, Maisonneuve, 1956.
- 14 - من المصادر التي اعتمدها في ذكر معالم الإسكندرية ومظاهرها العمرانية ومشاهدها، كتب التاريخ والرحلات في الفترة السابقة، لابن الحكم والهمذاني وابن فضل الله العمري والتنوخي والمسهودي وابن الفتح والسيوطي، انظر الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 561-572.
- 15 - عبدالرحمن بن حسن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق، أ. د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1998.
- 16 - الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر نفسه.
- 17 - P. S Girard, op. cit., pp. 150-154.
- Archives Diplomatiques de Nantes, Serie A., Carton 5-6. 18
- Archives de la Marine a Toulon et a Marseille.
- 19 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 362.
- 20 - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 571.
- 21 - أبو القاسم الزياتي، المصدر نفسه، ص. 1950.
- 22 - أبو القاسم الزياتي، المصدر نفسه، ص. 67.
- 23 - أبو القاسم الزياتي، المصدر نفسه، ص. 198.
- 24 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 362.
- 25 - أبو القاسم الزياتي، المصدر نفسه، ص. 198.
- 26 - المصدر السابق، ص. 193.
- 27 - الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص. 495.
- 28 - المصدر السابق، ص. 495.
- 29 - أبو القاسم الزياتي، المصدر نفسه، ص. 198.
- 30 - الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص. 597.
- الجدير بالذكر هنا أن عمود السواري أو عمود الأعيان يعرف لدى الكتاب الأوروبيين بعمود بومبي الذي عده الرحالة الفرنسي لوكا (Lucas) أجمل آثار الإسكندرية، والذي طلب القنصل الفرنسي ماويه (Maillet) من الحكومة الفرنسية نقله من الإسكندرية إلى باريس، راجع:
إلهام محمد علي ذهني، مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص. 222.
- 31 - أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص. 97.
- قدر الرحالة الفرنسي سافاري (Savary) طول عمود الإسكندرية بـ 114 قدما، وحدده لوكا (Lucas) بـ 94 قدما فقط، أنظر:
- إلهام محمد علي ذهني، المصدر نفسه، ص. 222.
- 32 - الحسين الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 564.
- حسب وصف سونيني (Sonnini) فإنه يتكون من ثلاث قطع: القاعدة، ثم العمود نفسه، ثم القمة. كما